

مجاهدة النفس ومحاسبتها



يقول الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة/ 183).

عندما نستقبل هذا الشهر المبارك، فإنَّ علينا أن نُعدَّ أنفسنا إعداداً روحياً للدخول في رحابه، حيث نشعر كما ورد في الخطبة المروية عن النبي (ص)، بأنَّنا في ضيافة الله، فعلى أن نحصل هذه الضيافة، التي هي مغفرة الله ورضوانه ورحمته ولطفه ورزقه، ما يجعل الإنسان قريباً من ربه بعقله وقلبه وروحه وحياته.

ونحن نحتاج كثيراً للحصول على هذا القرب من الله، لأنَّنا عندما نفكّر في وجودنا، نعي أنَّ الله هو الذي منحنا هذا الوجود (هل من خالقٍ غير الله؟) (فاطر/ 2) وإذا أردنا التفكير في حركتنا كلها في الحياة، فإنَّنا ندرك أنَّها من نعم الله (وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَامِّنُوا) (الذَّحَل/ 53) (وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا) (الذَّحَل/ 18).

إِنَّا نَعْرِفُ أَنَّ حَيَاتِنَا بِآلَائِهَا هِيَ مِنَ اللَّهِ، وَفِي رِعَايَتِهِ، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ يَعْطِينَا نِعْمَهُ عَلَى رَغْمِ مَعَاصِينَا وَابْتِعَادِنَا عَمَّا فَرَضَ عَلَيْنَا مِنْ وَاجِبَاتٍ، وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (ع) فِي دَعَاءِ أَبِي حَمْزَةَ الثَّمَالِيِّ: "تَحِبُّبُ إِلَيْنَا بِالذِّعْمِ وَنِعَارُضُكَ بِالذِّنُوبِ.."، "خَيْرُكَ إِلَيْنَا نَازِلٌ، وَشَرُّنَا إِلَيْكَ صَاعِدٌ"، فَإِنَّ يَعْطِينَا الْمَأْكُلَ وَالْمَشْرَبَ وَالْمَسْكَنَ، وَنَحْنُ نَغْتَابُ وَنَذِمُّ وَنُزْنِي وَنَأْكُلُ الْأَمْوَالَ بِالْبَاطِلِ، وَنَفْتِنُ "وَلَمْ يَزَلْ مَلِكٌ كَرِيمٌ يَأْتِيكَ عِنْدًا فِي كُلِّ يَوْمٍ بِعَمَلٍ قَبِيحٍ"، إِنَّهَا الْمَلَائِكَةُ الَّتِي تَقْدِّمُ تَقْرِيرَهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى "لَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنْ أَنْ تَحُوطِنَا بِنِعْمِكَ، وَتَنْفَضِّلَ عَلَيْنَا بِآلَائِكَ، سُبْحَانَكَ مَا أَحْلَمَكَ وَأَعْظَمَكَ وَأَكْرَمَكَ، مَبْدَأٌ وَمَعِيدٌ".

كَمَا وَقَدْ أَدْرَكْنَا أَنَّ كُلَّ مَا نَمْلِكُ فِي هَذَا الْكَوْنِ الرَّحِيبِ وَمَا عِنْدَنَا، هُوَ مِنَ اللَّهِ الْخَالِقِ (فَتَدَبَّرْكَ اللَّهِ أَحْسَنُ الدَّخَالِقِينَ) (المؤمنون/ 14)، فَكُلُّ مَا فِي الطَّبِيعَةِ مِنْ مَاءٍ وَهَوَاءٍ وَخَلَايَا وَأَجْزَاءٍ دَاخِلِ الْجِسْمِ، كُلُّهَا خَلَقُ اللَّهِ، فَهَلْ يُمْكِنُنَا الْإِسْتِغْنَاءُ عَنْ مَقَوِّمَاتِ الْحَيَاةِ الْكَوْنِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ؟

نَحْنُ مُرْتَبِطُونَ بِاللَّهِ بِمَا لَمْ نُرْتَبِطْ بِأَحَدٍ فِي هَذَا الْوُجُودِ، مُرَبُّوهُونَ بِهِ بِكُلِّ وَجُودِنَا، حَتَّى فِي لَحْظَةٍ حُضُورِ الْأَجْلِ، وَسَوْفَ نَقِيفُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَعَالَى، وَهَذَا الْوُقُوفُ يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَقِيمَ الْعِلَاقَةَ مَعَ اللَّهِ وَنُوَثِّقَهَا، فَكَيْفَ نُوَثِّقُ عِلَاقَاتِنَا بِمَنْ تَرْتَبِنَا الْمَصَالِحُ بِهِمْ، وَلَا نُوَثِّقَهَا بِاللَّهِ الَّذِي نَحْتَاجُ الْقُرْبَ مِنْهُ وَالْحُبَّ الْمَتَبَادِلَ مَعَهُ؟

وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ الرَّسُولُ (ص)، حِينَ دَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع) فِي مَعْرَكَةِ خَيْبَرٍ، بَعْدَ أَنْ أَخْفَقَ الْجَمِيعُ: "لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ"، فَالْحُبُّ مُتَبَادِلٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ. وَالسَّوَالُ: كَيْفَ نَحْصِلُ عَلَى هَذَا الْحُبِّ؟

لَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ الْحَسَّاسَةَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَا سِيَّامَا الْوَسِيلَةَ فِيهَا، وَهِيَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ: (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيِنِ الَّتِي إِتَّفَقْتَا فِيهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ) (آل عمران/ 13)، لِأَنَّ الرَّسُولَ يَبَيِّنُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، فَاتَّبَاعُ الرَّسُولِ مُحِبَّةٌ لِلَّهِ، لِأَنَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُفْتَنِينَ التَّوَّابِينَ"، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ وَالْكَاذِبِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ الصَّادِقِينَ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْمُجْرِمِينَ أَوْ الظَّالِمِينَ؛ فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ تَحِبُّ وَتُظْلِمَ وَتُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ؟

وَالظُّلْمُ لَيْسَ بِمَعْنَى الْحَاكِمِيَّةِ، وَإِنَّمَا الظُّلْمُ أَنْ تَأْخُذَ الْحَقَّ وَتَغْصِبَهُ مِمَّنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْكَ.. وَالظُّلْمُ يَكُونُ مِنْ خِلَالِ الْإِعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ الضَّعِيفَاءِ أَمَامَكَ، وَهَذِهِ مَسَائِلُ تَحْتَاجُ إِلَى مَنَاقِشَةٍ وَحِسَابٍ مَعَ النَّفْسِ، لِأَنَّ

مشغولون عن أنفسنا، فعن أمير المؤمنين (ع): "مَنْ نظَرَ في عيبِ غيره اشتغل عن عيبِ نفسه"، النفس الأمّارة بالسوء، والتي لم يفكّر أحدنا أن يجلس معها ليسألها عن نقاط ضعفها وقوّتها، وليتساءل معها: كم كذبة كذبت؟ كم غيبة؟ كم ظلماً؟ كم شتيمة؟ لنكن أصدقاء أنفسنا، فصديقك مَنْ صدقك لا مَنْ مدّّقك.. أن ننهي هذه النفوس عما يضرّها، ونرشدّها إلى ما ينفعها: "يا نفسُ، ما نهى الله عنه فهو مما يفسد حياة الإنسان في دنياه وآخرته، وأمّا ما أمر الله به، فهو مما يصلح حياة الإنسان في دنياه وآخرته".

فلنفكّر بهذه الطريقة، ونحن في ضيافة الله، حتى نخلص في شتّى أمورنا، وحساب النفس ليس أمراً سهلاً، إنّه يتحرّك في عالم الشهوة والمزاج (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ الْعَنِيَّةَ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات/40-41)، فالإنسان مدعو لفهم نفسه وحسابها ومحاكمتها ومجاهدتها، "اجعل نفسك عدوّاً تجاهده، لأنّها أمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي".